ليلة فى ڤرسوفيا

فى إحدى ليالى شهر أغسطس أو سبتمبر ، حين تكون الحرارة فى القاهرة قد بلغت أقصاها ، ويجثم على قلوب الناس هم من السعير الملتهب ، وفى تلك الأيام الخالية حين كان اسم هتلر يتلألأ فى سماء ألمانيا ، بل فى تلك السنة التى استضافت فيها ألمانيا أبناء العالم من شرق وغرب ، أعنى سنة الألعاب الأولمبية ، كان أربعة رجال من بنى البشر يخرجون مسرعين فى جنح الليل من بناء جديد أشبه ما يكون بثكنة ، لكنه كان فى الحقيقة مدرسة ، قاصدين إلى غاية يعلمها اثنان منهم على الأقل ؛ لأنهما كانا واثقين فى سيرهما ، ويسير اليها الآخران واثقين فى الصحبة .

كان الرجال الأربعة يرتدون معاطف لم يبللها المطر ، فى تلك الليلة من شهر أغسطس أو سبتمبر ، ولكن البرد كان ينفذ إلى لحومهم بل إلى عظامهم بل إلى أفئدتهم ، فهم لم يكونوا فى القاهرة ، ولا فى برلين ، بل فى ڤرسوفيا عاصمة الدولة البولونية .

كان الأربعة فى سماتهم مزيجا عجيبا من بنى البشر . ثلاثة قصرت قاماتهم على تفاوت فى القصر ، وامتلأت أبدانهم على تفاوت فى الامتلاء ، والرابع طويل القامة نحيل الجسد . كان أحدهم قصير القامة ضخم الوجه ذا لون أبيض أوربى مشرب بالصفرة ، وعينين خضراوين يتلألآن بشئ من حب الفكاهة والطيبة أيضاً ، وهو حليق الشاربين والرأس ، أو ما بقى من شعر الرأس ، فقد أعمل فيهما الموسى ، ولذلك بدا الرأس ضخماً متكورا . وكان الطويل النحيل أبيض اللون أيضا ولكنه ذو شعر غزير ، أو أن الشعر كان غزيرا ؛ فهو حليق اللحية ، ولكن الشعر ترك أثراً أخضر . وقد تدلى من كل جانب من فمه شاربان لونهما يميل إلى الصفرة . أما شعر الرأس فقد وقف عند الجبهة على باب الزوال وضاع الكثير من لمعته وحيويته . والشعر فى هذه المرحلة يستجيب الى الهواء

فى سرعة أو فى صعوبة ، فهو إذا عبث به الهواء فقد تلك الاستجابة المتناسقة التى هى دليل الشباب .

أما الرجلان الآخران فسحنتهما تدل دلالة كافية على أنهما غريبان عن تلك البلاد ، أحدهما أبيض اللون — أجل — ولكن فى بياضه حمرة عميقة قلما تشاهد فى أهل الشمال من أوربا ، وهى إن شوهدت هنالك ، اتخذت بريق طيف من أطياف اللون الأحمر التى نراها فى الخمر الأوربية وفى النبيذ بنوع خاص ، ودلت على أن صاحبها يكثر من الشراب حتى تأثرت به بشرة وجهه . أما هذا اللون فى هذا الرجل فكان فيه شئ آخر يميزه ويدل على أنه من لفح شمس قوية ، قد تكون شمس جنوب أوربا ، أرض تلك الأعناب الخضراء الزاهية التى تجدها ممتدة إذا سار بك القطار من نابولى إلى روما ، أو تلك الأراضى الساحرة القائمة حول خليج سورنت حيث تجتمع زرقة الماء بزرقة السماء تغشى الاثنتين غلالة من نور لا تقطع اتصالها إلا الأرض الأرجوانية . ويزيد فى جمالها ذلك الدخان الأبدى المتدفق من المارد الرابض فى جوف الأرض . أو ربما كان ، إذا لم يكن من أهل تلك البلاد ، من أهل إقليم أوربى فى الجنوب من أوربا أيضاً ، إقليم حدائق البرتقال ، ذلك الذى عرف العرب فترة طويلة ولكن إلى حين . ذلك أول ما يفكر فيه الأوربى إذا ما رأى شخصا قريبا إلى لون بشرته ، فهو لا ينتقل بالفكر الى قارة أخرى ولو إلى الشاطئ الآخر من البحر المتوسط ، فذلك العالم بصحرائه ونخيله وجماله بعيد عليه .

كان هذا الرجل الثالث ذا شارب قصير ، وكان أصلع الناصية وكان بياض الشيب قد طغى على البقية الباقية من شعره ، وقد وضع على عينيه منظارا يخفى لونهما المائل إلى خضرة ، خضرة زيتية عميقة . أما الرجل الرابع فلا يجهل الناظر إليه أنه من أرض إفريقية ، ومن تلك الأرض التى عرفت الفراعنة ، فلونه الأسمر مزيج من اللبن والبن وجسده الممتلئ يوحى بفكرة عامة عن تمثال « شيخ البلد » المعروف من رسومه بأوربا .

خرج الرجال الأربعة يهرولون فى ضوء مصابيح خافتة ، يتقدم البولونيان الجماعة ، وركبوا سيارة أجرة ، فسارت بهم تشق طريقها بين شوارع بعضها واسع وبعضها ضيق إلى أن وصلت أمام بناء فخم شاهق ، أول ما يلفت النظر إليه باب كبير من الحديد المذهب . وأمام هذا البناء ساحة كبيرة مرصوفة يحيط بها سور

قصير ، وفى هذه الساحة صفت موائد عدة . وأسرع البولونيان إلى مائدة منها على مقربة من السور فى الجانب الآخر وتبعهما المصريان ، فإذا النهر يجرى تحت تلك الساحة ، وإذا هم يشرفون على منظر ساحر .

جلس الأربعة ، وأسرع المضيفان فطلبا من الخادم شيئاً لم يتميز المصريان منه إلا كلمة « فودكا » ؛ فقد ألفا هذه الكلمة منذ وطئت أقدامهما تلك المدينة التى تكاد تكون روسية فى مشربها . وجاء الخادم بعد قليل بزجاجة كبيرة مليئة بالفودكا ، وأربعة أقداح ، وجلس الأربعة الى الشراب ودار بينهم الحديث .

كان هذا البناء الفخم ناديا لرجال الجيش يسمرون فيه ويرقصون ، ولا بأس من دخول بعض الضيوف إليه . وأكثر الضيوف عادة من النساء . ولم يلبثوا إلا قليلا حتى كانت أنغام الجاز تترامى إليهم بطيئة ساحرة أحيانا ، فإذا هى تانجو أو رومبا ، أو سريعة أخاذة فإذا هى فوكس تروت . وأخذت الفودكا تتمشى فى مفاصلهم سريعا ، فتبدل الجو البارد إلى دفء أشبه شئ بدفء إفريقية ، ولمعت مياه النهر أمامهم فذكرت اثنين منهم بنهر آخر بديع ولكنه عظيم ، وبدأ ينسيان العالم إلا تلك الجلسة السعيدة ، غابت عنهما معالم الزمن . وهل لدى الانسان ساعات أسعد من تلك التى ينسى فيها الزمن !

كان الحديث يدور بين الأربعة متقطعا ؛ إذ لم تكن لديهم رغبة فى البحث العميق ، ولم ينتظم غير ملء الأقداح كلما أفرغ أحدهم فى جوفه تلك النار المذابة . حتى إذا أتى الأربعة على الزجاجة قال أحد البولونيين : هيا بنا . وقام المصريان — فى شئ من التردد — من تلك الجلسة اللذيذة .

ركب الأربعة عربة يجرها جواد أعجف ، فسارت بهم على مهل فى الشوارع الضيقة والمتسعة لتلك المدينة القديمة ، وربما سارت فى ذات الشوارع التى اخترقوها . ولكن كيف يعرفها الأجنبيان ! إذ لم يقيما فى العاصمة البولونية قبل ذلك إلا بضعة أيام . ولو أنهما عملا على تعرف الشوارع لما تيسر لهما ذلك الآن . وكيف يستطيعان وقد ملأت الفودكا رأسيهما بنشوة أضفت على العالم من حولهما غلالة شفافة لا تكاد تتميز منها الأشياء ، ولكنها لامعة .

سارت بهم العربة إلى أن وقفت أمام كومة من الظلمة هى بناء شامخ له باب ضيق عليه حارس ، ونزل الأربعة مسرعين ودخلوا فى طرقة طويلة سلموا فى آخرها معاطفهم إلى فتاة جميلة . ومن باب قصير دخلوا إلى ردهة واسعة .

كانت الردهة غاية فى الإناقة ، وقد صفت حولها موائد للجالسين ، وفى وسطها مكان فسيح من الخشب يستعمل ساحة للرقص أحياناً ، وللعرض أحياناً . وكانت الردهة مضاءة بنور أبيض ضئيل يحاكى ضوء القمر فى هدوئه وفى خفوته ، وكان هـذا النور الخافت يترامى من مصابيح رسمت على شكل أقمار ونجوم ، فى قبة الردهة التى كان لونها أزرق صافياً يحاكى لون السماء . وكانت الموسيقا تعزف رقصة تانجو ، فى حين أخذ اثنان من الراقصين يقومان بعرض الرقصة .

جلس الأربعة إلى مائدة ليست فى الصف الأول من المتفرجين ، فجميع الموائد فى ذاك الصف كانت مشغولة ، وجاءت فى الحال زجاجة الفودكا الكبيرة والأقداح الأربعة .

كان المصريان يشعران أنهما احتسيا فوق طاقتهما من هـذه الخمر الشديدة ، ولـكنهما فى سبيل مجاراة مضيفيهما ، أو لأنهما خافا أن يضطرا إلى نوع آخر من الشراب ، أو بسبب ما تجره الخمر من فقد الإرادة ، لم يعترضا على الفودكا .

امتلأت الكؤوس وأخذ الغريبان يجيلان النظر فيما حولهما ، فإذا الحاضرون على ما يظهر من رجال الطبقة الممتازة ، وإذا مجموعة من الرجال فى ثياب السهرة الأنيقة ، ومجموعة من النساء فى أغلى الثياب وأبدعها زيًّا ، غير أن العجيب فى هذا الجمع أن أجمل السيدات وأكثرهن فتنة كن يجلسن عادة مع رجال متقدمين فى السن ، ابيض شعر الرأس منهم أو فقدوه . وهكذا كان حظ هؤلاء النساء الطامعات فى الزينة والثراء . إن من حظهن أن يبذلن شبابهن لأكثر الرجال قدرة على إرضاء رغباتهن فى المال ، وهؤلاء يكونون عادة من الرجال الذين أنفقوا زهرة شبابهم فى جمع الثروة ، فإذا نالوا شيئاً منها ، كان شبابهم قد ذهب ، وهم على الأقل يستطيعون أن يتعلقوا بأذيال الشباب ، بأن يصحبوا هؤلاء الفتيات الجميلات . وهكذا ستظل الحال دائماً ما دام الذهب هو المسيطر على الأمور . وستجد دائماً رجالا أثرياء يتمتعون بشباب الفتيات ، وفتيات جميلات يبعن شبابهن من أجل المال .

كان الرجال الأربعة قد ملئوا خمراً بحيث غشيت أبصارهم غشاوة من أثر الخمر ، وكأنهم ينظرون إلى الحاضرين من خلال ضباب ، وصاروا يتكلمون بأحاديث متقطعة أكثرها دعوة واستحسان للمزيد من الشراب ، تقطعها ضحكات صغيرة على عبارات تافهة . غير أن أحد المصريين كان لا يزال فيه بقية من قوة الملاحظة ،

ولم يكن ليستطيع أن يحول نظره وبقيـة أفكاره عن اثنين جالسين بحيث لا يرى منهما غير الظهر ، إلا إذا التفتا قليلا إلى الخلف . كان الرجل بديناً ذا رأس أملس إلا من حِفَـاف من الشعر الأبيض ، على أنه يرتدى ثياب السهرة السوداء من خير الأقمشـة ، وقميصه وياقته غاية فى النقاء ، وهو حليق اللحية والشارب ، وقد غضّنت وجهه التجاعيد من كل جانب ، ولا سيما فى أسفل الرقبة . وإلى جانبه فتاة شقراء هيفاء أنيقة ، وقد ارتدت ثوباً من الحرير الأزرق ، وتعرى ظهرها إلى ما يقرب من الخصر . من وهو ظهر جميل فى تكوينه جمالا يفوق التصور . وقد فكر المصرى لعل هذا الظهر هو الذى سلب لب صاحبها ، ثم ابتسم لفكرته .

كان الرجل يدخن سيجاراً غليظاً ورأسه إلى الوراء وأمامه الـكأس اللامعة ، أما الفتاة فكانت منحنية إلى الأمام قليلا ، وقد وضعت رجلا على رجل وأخذت تدخن سيجارة ، وأمامها الـكأس .

ولقد كان ظهرها فى جماله وانحنائه القليل كأنه يتكلم . إنه لا شـك يعبر عن سأم ، سأم قليل ليس معناه أنها ستحاول أن تغير من هـذه الحياة ، بل معناه أنها ستظل ترتاد هذه المنتديات الليلية ؛ فهى مُسكن يقيها شر التفكير فى حياتها . ومن قال إن المسكن من الأدوية يُشعِر بالصحـة ! إنه يخفى الألم الـكامن .

كانت المناظر تتتابع ، فمن راقصة تـكاد تكون عارية تعرض فنها ، إلى مغن هرم حسن الصوت ! كل منهما يعرض فنه ثلاث مرات ، وبين هذا وذاك أدوار الرقص يشترك فيه بعض الحاضرين . غير أن هذا السيد لم يقم بمراقصة زوجته أو صديقته ، واستمرا جالسين : هو يدخن سيجاره ، وهى بظهرها الحلو الجميل المنحنى قليلا تدخن سيجارة ، أو ترتشف جرعة من الـكأس . وليس ثمة شك فى أنه لو طلب إليها المراقصة لانتصبت بقامتها الهيفاء ، ولخاصرت هذا الجسد البدين . إنه جزء من واجبها !

عاد دور العرض ، وكان الرجل المخمور لايزال ينظر إلى الجسد البـدين ، وإلى جانبه الظهر الجميل المنحنى قليلا ، يمثل السآمة والملل ، فإذا بهذا الظهر ينتصب فجأة ليرقب شيئاً ، وإذا بصوت يحدثه الحرير من تغير أوضاع الجلسات بين مئات من النساء ! لا ريب فى أنهن أخذن ينتبهن باهتمام إلى العرض .

التفت الرجل فإذا فتى قوى الجسم ذو شعر أصفر غزير ولكنه قصير ، ترتدى ثيابا زرقا على مثال شباب الفلاحين الروس ، ولكنها من الحرير الأزرق الفاتح البراق ، وهو جميل الصورة جدا ، غير أن كل حركة فى جسمه تنم عن رجولة .

وعزفت الموسيقا فى قوة وحرارة رقصة روسية ، وأخذ الشاب ينثنى على ساقيه ثم يقفز ، وكان سريعاً رشيق الحركة ، وكانت الموسيقا خاطفة وقصيرة ، وانتهى الرقص سريعاً ، وخرج الفتى بين تصفيق حاد ، أغلبه من النساء الجميلات .

لم تمض فترة حتى عادت الموسيقى الى عزف رقصة روسية من نوع « الجوباك » وعاد الفتى الى الرقص ، وكان سريعا ورشيقا وقويا ، وكان اهتمام النساء واهتمام الظهر الجميل باديا للرجل المصرى ، حتى كاد يرفع عن عينيه شيئاً من غشاوة الخمر .

وعلى حين فجأة وإثر قفزة هائلة من الراقص ، دوى فى أرجاء المكان صرخة امرأة وشهيق .

وهب الجالسون الأربعة ؛ إذ قال أحد البولونيين منهم : « هيا بنا » . وهرول الأربعة إلى الخارج يترنحون ، ولم يستطع المراقب منهم أن يتبين وسط الدخان والخمر إلا أن صاحبة الظهر الجميل لم تكن هى الصارخة .

حسن محمود